من بومباي إلى مسقط عُمان والهند والخليج في رِحلة الأمريكي لوكر Locker عام 1866م

أحمد السعيدي ■

م«مع الهلال والنجم، رحلة من بومباي إلى إسطنبول عبر الخليج العربي»: رحلة مهمة للرحّالة الأمريكي لوكر Locker خلال القرن 19، يصف فيها مشاهداته وانطباعاته البالغة الأهمية عن عُمان في صلتها بالهند والخليج، منطلقاً في رحلة بحرية من بومباي إلى مسقط، فالكويت، والعراق، ثم تركيا.

هكذا يقدِّم الرحّالة إفادات جليلة عن الهند وعُمان والخليج ـ بمظاهرها المتنوّعة ـ حضارةً وسياسةً واقتصاداً واجتماعاً وثقافةً..، ويخصِّص حيّزاً للصِّلات بينها، فيبدي إعجابه بأخلاق العروبة في مواطنها الأصلية، ويطنب في الإشادة بحميّة العرب في قِرى الضيف، وحماية المستجير، وعاداتهم في مشروب القهوة، وارتباطهم الشديد بالفرس[1].

سيسعى البحث إلى دراسة الرِحْلة من خلال الرِّحْلات الغربية إلى دول المحيط الهندي وعُمان والخليج (ق17 و19م)، والتعريف بالرحّالة ورحلته، ثم تفكيك منظور الرحّالة لبلدان الهند وعُمان

1 ـ مع الهلال والنجم: 8 ـ 9.

■ جامعة ابن زهر، أكادير ـ المغرب.

والخليج على صعيد مظاهرها البشـرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. وبيان الصِّلات بين هذه البلدان وعُمان خلال الفترة المذكورة، ثم ختم البحث بخلاصات وتوصيات.

الرِّحْلات الغربيـة إلى دول المحيط الهندي وعُمـان والخليج بين القرنين 17 و19م:

استهل الرحّالون الغربيون رِحْلاتهم إلى المنطقة منذ القرن الثامن عشر لأغراض متعددة؛ مثل: الاستكشاف والمغامرة والتبشير والتجسُّس والتمهيد للاسـتعمار.. وانطلـق الرحّالون من الغــرب خاصة، وأوروبـا على الأخصّ (الدانمارك، سويسرا، فرنسا، إنجلترا، ألمانيا..)؛ ورغم ما يحمله بعضها من أحكام قبْلية عن حضارة العرب؛ ففيها الكثير من المعطيات المهمة للباحث في تاريخ المنطقــة، والعلاقــات بين أطرافهــا وشــعوبها وثقافاتها، وهذا ما يسعى البحث إلى بيانه.

مهما يكن، يخــرج الباحث من مدوّنــة الرّحلات الغربية إلــى المنطقة بالعناوين الآتية:

- كارستن نيبور (ت: 1815م) Carsten Niebuhr: **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها**، 1761م.
- جان باپتيست جاك لوي روسّو (ت: 1831م) Jean Baptiste Louis Jacques Rousseau: **رحلة إلى الجزيرة العربية**. 1808م.
- يوهــان لودفيــغ بوركهــارت (ت: 1817م) Johann Ludwig Burckhart: **رِحلات إلى شبه الجزيرة العربية**. 1814م.
- ريتشارد فرنسيس بيرتون (ت: 1890م) Richard Francis Burton: **الحـج إلى المدينة ومكة**. 1855م.
- جيمس رايموند ولستد (ت: 1842م) James Raymond Wellsted: **رحلات في الجزيرة العربية**، 1838م.

- ويليام غيفورد پالغريف (ت: 1888م) William Gifford Palgrave: **رواية شخصية لرحلة دامت عاماً كاملاً**. 1862م.
- لويس پيلّي (ت: 1895م) Lewis Pelly: رحلة إلى الرياض. 1865م.
- جون فراير كين (الحاج محمد أمين) (ت: 1937م) John Fryer Keane: **رحلتان إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة**. 1877م.
- الليدي آن بلَنْت (ت: 1917م) Lady Anne Blunt: **رحلة إلى بلاد نجد**. 1881م.
- يوليوس أويتنغ (ت: 1913م) Julius Euting: **رحلة إلى داخل الجزيرة العربية**. 1883م.
- جول جرفيه كورتيلّمون (ت: 1931م) Jules Gervais Courtellemont: **رحلتي إلى مكة المكرمة**، 1894م.

هذه إذن رحلات قام بها رجال ونساء ودوّنوها ونشروها للقارئ الأجنبي أساساً، كانت دواعيهم إليها متباينة؛ لكن الوجهة وحّدتها وهي آسيا عامة، والهند والخليج خاصة، كلها مطبوعة في لغاتها الأصلية، وقليل منها تُرجم إلى العربية.

استهل الرحّالون الغربيون رِحْلاتهم إلى المنطقة منذ القرن الثامن عشر لأغراض متعددة؛ مثل: الاستكشاف والمغامرة والتبشير والتجسُّس والتمهيد للاستعمار.. وانطلق الرحّالون من الغرب خاصة، وأوروبا على الأخصّ.

عن الرحّالة لوكر ورحلته الآسيوية

تشحّ المعلومات عن هذا الرحّالة الذي أحاط رحلته بكثيرٍ من الغموض؛ فهو «رجل أمريكي لا نعلم من شؤون حياته شيئاً، اللهمَّ إلا ما خطته يداه في كتابه هذا»[2]، ومن المعلوم أن اسم هذا الرحّالة أ. لوكر[3] (دون ذكر اسمه الأول) A. Locher.

2 ـ مع الهلال والنجم: 7.

3 ـ اختلف في نقل اسمه إلى العربية بين (لوشر) و(لوكر)؛ فقد ورد الأول عند الصانع وعبد العزيز عبد الغني إبراهيم، والثاني عند مترجمة الكتاب رنا صالح. يقول محرر الكتاب: «هذا وقد سمى الأستاذ الصانع مترجم المؤلف: أ. لوشر، وهذا غلط نقله عنه كل من أشار إليه، والصواب في =

مهما يكن من شـيء؛ فهو رحّالـة أمريكي ينحدر من عائلـة ذات أصول أوروبية، «وأصـل هذه العائلة في أميـركا وبريطانيا يعود إلى أُسـرة ألمانية باڤارية: Löcher (لوخر)»[4]، ويذكر في رحلته «أن له أقارب في سويسرا، كما كانت له أخت تقيم في بغداد مع زوجها، وهو تاجر أوروبي»[5].

ويعدُّ هـذا الرحّالة «الأمريكـي الأول الذي اجتاز الخليـج من أدناه في مسـقط إلى أقصاه في البصرة، ثـم الى القسـطنطينية، في فتـرة درجت السـلطات البريطانية في الخليج ـ في ذروة سيطرة حكومة الهند البريطانية في العقد السابع من القرن التاسع عشـر ـ على إغلاق الخليج أمام كل نفوذ دولي مغاير»[6].

يتبيّن من الرحلة أن لوكر ليس رجل أعمـال أو تاجراً؛ بل مغرمٌ بالرحلة والمغامرة والصيد في براري آسـيا وإفريقيا[7] التي رحل إليها، مقدّماً للقراء لقاءات حيّة بين الغرب والشرق، وما يتولّد عنها من مشاهدات وانطباعات عن الذات والآخر.

زمن الرحلة:

لم يحدد لوكر زمن رحلته؛ وإنما اعتمد محـرر الرحلة على عدة أحداث لبيانه، فتوصّل إلى أنه عام 1868م، وقبله أرّخ الصانع[8] مترجم الجزء المتعلّق بالكويت زمنها في العام نفسـه. ولكن ـ اعتماداً على الرحلة نفسـها وبعض

= لفظه (لوكر)». مع الهلال والنجم: 10. ويتساءل كاتب أمريكي إن كان اسمه الأول (أبراهام). ينظر: Kenneth R. Wade, Journey to Moriah: The Untold Story of How Abraham Became the Friend of God, p. 30.

4 ـ مع الهلال والنجم: 7.

5 ـ مع الهلال والنجم: 9.

6 ـ روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية: 19/3.

7 ـ ذكر في رحلته اسـتعمال العمانيين لشباشـب المغرب (ص49، 73)، كما ذكر أكلة الكسكسـي المشـهورة ثمة (ص77)، فهل زار بلدان المغرب العربي (المغرب والجزائر وتونس) قبل رحلته هذه؟ كما زار جنوب إفريقيا بين سنتي 1863 و1865م.

8 ـ لم أطلع على كتابه الموسوم «الكويت عام 1868م»؛ لأرى مسوّغاته في اختيار السنة المذكورة.

الأحداث المتضمنة فيهـا، وقول أحـد الباحثين: «تبدأ هـذه الرحلة... إلى الخليج العربي من بومباي ـ التي كان هذا الرحّالة قد عاد إليها ـ في 14 شوّال 1282هـ/ الأول مـن مـارس 1866م)»[9] ـ يتبيّن أن رحلة لوكـر كانت في عام 1866م بناء على المعطيات الآتية:

• ذكر لوكر في رحلته إلى مسقط وفاة السلطان أو الإمام في قوله: «قبل مغادرتنا لمسقط بوقت قصير، شاع في العاصمة خبرٌ مفاده أن السلطان قد توفي فجأة في ميدان المعركة، وأن أحد إخوته الأصغـر منه هو من اتخذ على عاتقه إدارة الجيش»[10]. والمقصود هو السلطان ثويني بن سعيد[11] الذي قُتل في صحار سنة 1282هـ/1866م.

يتبيّن من الرحلة أن لوكر ليس رجل أعمال أو تاجراً؛ بل مغرمٌ بالرحلة والمغامرة والصيد في براري آسيا وإفريقيا التي رحل إليها، مقدّماً للقراء لقاءات حيّة بين الغرب والشرق، وما يتولّد عنها من مشاهدات وانطباعات عن الذات والآخر.

• أإن هذا العام ـ أي 1866م ـ ينسـجم مع حدث حلـول لوكـر بالكويـت على عهد الشـيخ صباح بن جابر بـن عبـد الله (1276 ـ 1283هـ/ 1859 ـ 1866م)، ويصفه بأنه «يبلغ من العمر أكثر من ثمانين عاماً، وتبدو على وجهه ملامح الذكاء، وهو مهذب جدّاً في كلامه وعاداته الشـرقية»[12]. وقد ذكر محـرر الرحلـة (ص7) ومترجمتها بأن المقصـود هـو «الشـيخ عبد الله بـن صباح بن جابر بن عبد الله بن صباح العُتبي الشملاني، وهو خامس شيوخ الكويت من آل الصّباح، ويُعرف بعبد الله الثاني. وُلِّي الحكم عام 1866 وتوفى إلى رحمه الله عام 1892..»[13]. فإن ذهبنا مع رأيهما، سـنتوصل إلى أن وصف لوكر لشيخ الكويت بأنه في الثمانين لا ينطبق على هذا الحاكم الخامس وهو الشـيخ (1866 ـ 1892م)، لأن عمره كان في أوائل الخمسينيات

9 ـ روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية: 21/3.
10 ـ مع الهلال والنجم: 53.
11 ـ ترجمته في دليل أعلام عُمان: 41.
12 ـ مع الهلال والنجم: 70.
13 ـ مع الهلال والنجم: 70.

(52 سنة) حين لقائه بلوكر، وإنما ينطبق على والده الحاكم الرابع وهو الشيخ صباح بن جابر[14] (1859 ـ 1866م) المولود سنة 1784م، وهو الذي لقيه لوكر قبيل وفاته، ولقيه قبله الرحّالة الإنجليزي لويس بيلّي سنة 1865م[15].

مراحل الرحلة:

انطلق الرحّالة لوكر من بومباي ثم مسقط، ووصف الناس والأشياء، ومنها إلى الكويت التي أفاض في وصفها ذاكراً استقبال شيخها له ولأصدقائه.. ثم إلى العراق مارّاً بوادي الفرات الأدنى، فالأوسط، ثم كركوك والموصل فجزيرة ابن عمرو ونصيبين عبر كيليكيا وصولاً إلى ماردين وديار بكر، ومنها إلى بيلان وخليج الإسكندرون على البحر الأبيض المتوسط، حيث ركبوا البحر متوجهين إلى إسطنبول، وعبْر هذه الرحلة الطويلة ـ كما يقول المحرّر ـ نجد كتاباً حافلاً بالمغامرات وقصص الصيد والغزو، ووصف البلدان والمدن والأقوام والآثار التي مرّ بها الرحّالة.

أما عنوان الرحلة؛ فقد اختار الرحّالة أو ناشر الرحلة عنواناً طويلاً لرحلته هو:

With Star and Crescent, a Full and Authentic Account of a Recent Journey with a Caravan from Bombay to Constantinople, Comprising a Description of the Country, the People, and Interesting Adventures with the Natives (مع النجم والهلال، الرواية الكاملة والأصلية لرحلة انتهت مؤخراً مع قافلة متجهة من بومباي إلى القسطنطينية، تتناول وصفاً للبلاد والناس والمغامرات مع السكان).

ويومئ رمزاً النجم والهلال إلى السلطنة العثمانية، التي بسطت سيطرتها على الشرق العربي آنذاك، حيث «يحمل هذا الكتاب اسماً متفرداً: **مع النجمة والهلال**، فهو يحمل دلالات ذات مغزى ديني»[16].

14 ـ تاريخ الكويت للرُّشَيد: 127، وصفحات من تاريخ الكويت للقناعي: 17.
15 ـ رحلة الى الرياض: 28. وينظر أيضاً: تاريخ الكويت الحديث: 202.
16 ـ روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية: 19/3.

صدرت الرحلة في عدّة طبعات:

• الأولى سنة 1889م ما يعني أنها ظهرت ـ بحسب محرِّر الرحلة ـ بعد انقضاء الرحلة بأكثر من عشرين عاماً، وصدرت بدار إتنا Aetna في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

• الثانية سنة 1891م؛ أي بعد الأولى بسنتين (ينظر غلافها في ملحق البحث)، طُبعت «بتجليد فاخر وموشَّحة بالصور، وبلغ حجمها 634 ص من القطع المتوسط»[17].

• ثم توالت الطبعات الحديثة بعد ذلك مثل: طبعة سنة 2010م الصادرة عن دار النشر Biblio Bazaar، 650 ص، وطبعة سنة 2015م الصادرة عن Arkose Press، كلتاهما بالولايات المتحدة الأمريكية.

انطلق الرحّالة لوكر من بومباي ثم مسقط، ووصف الناس والأشياء، ومنها إلى الكويت التي أفاض في وصفها ذاكراً استقبال شيخها له ولأصدقائه.. ثم إلى العراق مارّاً بوادي الفرات الأدنى، فالأوسط، ثم كركوك والموصل.

أما بخصوص تلقّي الرِّحلة عند العرب؛ فقد ترجَّح ذلك التلقي بين الترجمة الجزئية والكاملة والتلخيص من خلال:

• ترجمة الجزء المتعلّق بالكويت من الرحلة بعنوان «الكويت عام 1868م»، بعناية: عبد الله ناصر الصانع، مكتبة الطلبة، الكويت، 1959م، 40 ص.

• ترجمة الرحلة إلى العربية كاملة لأول مرة سنة 2011 ضمن مشروع رواد المشرق العربي، بعنوان معدل هو «مع الهلال والنجم [بدل عنوان «مع النجم والهلال»]، رحلة من بومباي إلى إسطنبول عبر الخليج العربي عام 1868م»، ترجمة: رنا صالح، تحرير وتعليق: أحمد إيبش، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2011. 636 ص من القطع المتوسط.

• تلخيص وترجمة جزء كبير من الرحلة بعناية عبد العزيز عبد الغني

---

17 ـ مع الهلال والنجم: 10.

إبراهيم في كتابه «روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية»[18]، الصادر سنة 2013، وسمّاها «مع النجمة والهلال».

هكذا يظهر الاهتمام الكبير بالرحلة لدى الغرب والعرب تعريفاً وترجمةً وتلخيصاً.. ما يجلّي قيمتها في هذا المعطى، وفي معطيات أخرى ـ ستأتي قريبا ـ تبيّن الصلات بين عُمان والهند والخليج.

من وجه آخر، ليست رحلة لوكر هذه باكورة رِحْلاته، بل ألّف ثلاث رِحْلات أخرى هي:

- رحلة إلى الهند Trip to India
- في صحراء لورستان In the Loorian Desert
- النخاسون العرب Arab Slaves

ما يعني أنه مولع بالرحلة والسفر، ولا ندري: أَطُبعت رِحْلاته[19] هذه أم لا؟ ولكن الواضح أنه ذو خبرة في التَّرحال، وخاصّة في البلاد الآسيوية، وفي البلاد العربية على الأخصّ، يقول عنه ناشر الرحلة: «إن مؤلف هذه الصفحات ـ وهي وصف لقصة ممتعة ـ أنجز تلك الرحلة برفقة ملحقٍ بالحكومة الفرنسية مع مرافقين وحراس تمّ اختيارهم من بين أهالي البلاد التي مرّوا بها أثناء مسيرتهم من بومباي نقطة البداية حتى وصولهم إلى القسطنطينية (إسطنبول) نقطة نهاية تلك الرحلة»[20].

من اللافت في الرحلة لجوء الرحّالة إلى إخفاء أسماء شخصيات مرافقة له، كما أخفى اسمه الأول، فصار الرحّالة لوكر شبه مجهول، إلا من معطيات مستقاة من رحلته تنبئ ببعض من سيرة الرجل وشخصيته.. كما كشف النقاب عن شخصيات مرافقة له منها السنيور (P)واسمه السنيور بييترو Signor Pietro، الذي اقترح على لوكر مشاطرته رحلته فوافق، وهو أرستقراطي إيطالي

18 ـ روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية: 19/3 ـ 60.

19 ـ بحثت عن هذه الرحلات في قواعد بيانات بعض المكتبات مثل مكتبة الكونغرس فلم أقف عليها.

20 ـ مع الهلال والنجم: 29.

كلفه «الإمبراطور الفرنسـي لويس نابليون (الثالـث) ليجلب له بعض أصائل فحول الخيل العربية من موطنها الأصلي في نجد والعراق»[21].

الهند وعُمان والخليج في الرحلة: مشاهدات وانطباعات

توغّل لوكر فـي رحلته إلى تركيا؛ لكن البحث سـيقتصر على المرحلتين الهندية والخليجية، مركزاً على بومباي فمسـقط ثم الكويت، وفق الخطاطة الآتية:

بومباي ◂ مسقط ◂ الغبرة ◂ مسندم ◂ مضيق هرمز ◂ بندر عباس ◂ هرمز ◂ قشم ◂ لنجة ◂ بوشهر ◂ خارك ◂ فيلكا ◂ الكويت.

والغرض تفكيـك منظور الرحّالـة للمناطق المرتحل إليها، وتبيـان مشـاهداته وانطباعاته عنها، وهي الآتية:

بومباي[22] أو محطة الانطلاق إلى بلاد العرب.

قضى لوكر ثلاث سنوات في الهند مستكشفاً أدغالهـا وغاباتها في رحلات صيـد جماعية، ولا عجب أن يكون مسـتوطناً الهند طوال تلك المدة؛ إذ إنها كانت مستعمرة بريطانية منذ أوائل القرن التاسع عشـر، يقول: «في صباح الأول من مارس [عـام 1866] وصلت إلى بومباي مـن رحلة صيد في أدغـال وغابات كانديش Candeish وناغبور Nagpoor... اسـتقبلني أصدقائي فـي بومباي بمودّة خاصة مميّزة وخاصة بالمبعوثين الأوروبيين في الهند»[23].

قضى لوكر ثلاث سنوات في الهند مستكشفاً أدغالها وغاباتها في رحلات صيد جماعية، ولا عجب أن يكون مستوطناً الهند طوال تلك المدة؛ إذ إنها كانت مستعمرة بريطانية منذ أوائل القرن التاسع عشر.

كان الرجل عارفاً بالهند، لغة وحضارة وتقاليـد.. ما جعله يقيس عليها بقية البلدان التي رحل إليها، خاصة دول الخليج.

21 ـ مع الهلال والنجم: 7.

22 ـ في سنة 1996 تم تغيير اسم المدينة إلى (مومباي)، وتقع على الساحل الغربي للهند.

23 ـ مع الهلال والنجم: 31.

لم يفرد لوكر في رحلته هذه حيّزاً ذا بال للهند[24] عامة، وبومباي خاصة، حيث كانت نقطة انطلاقه لاستكشاف دول الخليج، وكان منظوره إليها ـ أي إلى بومباي ـ يتسم بالرَّمْنَسة[25] الواضحة في قوله: «كان لدي بالكاد الوقت لألقي نظرة وداع على تلك المدينة الواسعة، النشيطة والممتعة، حيث قضيت بعض أمتع سني حياتي، وبالكاد كان لدي الوقت لأنظر مرة أخيرة إلى تلك الجزر الجميلة... بنباتاتها الاستوائية الرائعة، وتلالها الجميلة المكسوة بأعداد لا تحصى من أشجار جوز الهند والنخيل وأشجار البانيان وغيرها من الأشجار البالغة الضخامة... حيث تذوّقت لأول مرة طعم الحياة المستقلة للصياد، وذلك عندما مررنا ببيت كولوبا المضيء، واجتزنا مياه آزور العميقة في المحيط الهندي»[26].

يبدو أسلوب الرحّالة أقرب إلى الشعر في وصف بومباي واستدعاء ذكرياته فيها، خاصة رحلات الصيد والاستكشاف، يقول: «بالعودة من مشهد خيالي ليس له مثيل، توجّه اهتمامنا فجأة نحو منظر أجبرنا على تذكر المخاطر التي قد تواجهنا»[27].

بومباي مكان شاعري تصعب مبارحته. هذا ما يودّ الرحّالة قوله، وكأن السنوات الثلاث التي قضاها هناك مجرد خيال أو حلم.

لماذا مبارحة بومباي من قِبَل الرحّالة؟

يجيب في قوله: «وكما بقيت وقتاً أطول مما نويت في الهند، كان من الضروري أن أغادر في الثالث من مارس»[28]. الأمر الضروري إذن: هو الانتقال مكرهاً إلى مكانٍ آخر، ولا يذكر الرحّالة ذلك الضروري إن تلميحاً أو تصريحاً.

---

24 ـ سبق أن أفرد رحلة خاصة للهند كما سلف الذكر.

25 ـ يقول إدوارد سعيد: «فقد كان الشرق ـ تقريباً ـ اختراعاً غربياً، وكان منذ القدم الغابر مكاناً للرَّمْنَسَة (رومانس)، والكائنات الغريبة المدهشة، والذكريات والمشاهد الشابحة، والتجارب الاستثنائية». الاستشراق: 190.

26 ـ مع الهلال والنجم: 33.

27 ـ مع الهلال والنجم: 33.

28 ـ مع الهلال والنجم: 31.

مهما يكن من أمرٍ، تكتسي بومباي ـ ومن ثَمَّ الهند ـ مسحة من الجمال والروعة في منظور الرحّالة، يتضح ذلك في ترجمة أحاسيسه وانطباعاته في وداعها بلغة فيها من البلاغة[29] والجمالية الشيء الكثير.

يُبحر الرحّالة في سفينة بينانغ Penang المتجهة إلى جزيرة العرب بعد لقائه بالسنيور بييترو واتفاقهما على الرفقة، ويصف السفينة وركابها المتكونين «من مسلمين وبعض الفرس وبعض الأفغان، ولكن القسم الأكبر كان من سكان ساحل جزيرة العرب، الذين كانت لديهم علاقات عمل في الهند، وعدد قليل جدّاً من الهنود»[30]، وعند اقترابه من مسقط يصف مشاهداته في البحر، خاصة مراكب العرب التي تسمى «البغلات» Bagalows المتّجهة إلى موانئ الخليج.

يقدم الرحّالة جملة انطباعات وأحكام عن مسقط، صادرة عن معاينة للمدينة، في استدعاء لسلطة المقروء والمتخيل، وهو ما يطوّق غالب الرحالين الغربيين إلى جزيرة العرب.

تبدو بومباي ـ التي افتتن بها الرحّالة ولم يرد مبارحتها ـ نقطة انطلاق لاستكشاف الخليج خاصة، مبتدئاً بمسقط التي يتوقف مليّاً عندها مورداً مشاهداته وانطباعاته عنها، وهو ما سنعرضه في المبحث الآتي بإذن الله.

مسقط: التوغل في المدينة

يقدم الرحّالة جملة انطباعات وأحكام عن مسقط، صادرة عن معاينة للمدينة، في استدعاء لسلطة المقروء والمتخيل، وهو ما يطوّق غالب الرحالين الغربيين إلى جزيرة العرب. وتعدُّ الصور المقدّمة عن مسقط مهمة جدّاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.. فقد اقتحم المجتمع المسقطي، وهو يصفه من الداخل في حياة الناس اليومية، وفي علاقتهم بمجاوريهم من الهنود خاصة.

29 ـ يستعمل الرحّالة اللغة نفسها في وصف ليل الكويت، حيث ينام السكان فوق سطوح المنازل.

30 ـ مع الهلال والنجم: 34.

ميناء مسقط وألف ليلة وليلة:

بعد خمسة[31] أيام من الإبحار، وصلت السفينة بينانغ Penang إلى ميناء مسقط، حيث يبدي الرحّالة أول انطباع له عن الرائحة النفاذة فيه، وهي رائحة السمك، يقول: «إن أول انطباع بدا علينا في شاطئ مسقط أتى عبر حاسّة الشم، التي أُطبق عليها بشكلٍ كريه ودون مهرب، برائحة لا تشبه أبداً رائحة العطور العربية التي كما سبق لنا أن سمعنا وقرأنا عنها في القصص الخيالية وألف ليلة وليلة»[32].

يبدو الرحّالة في انطباعه مسلوباً ـ مثل غيره من الرحّالين الغربيين ـ بما يسميه إدوارد سعيد «الاقتباس الترميمي للسلطة المرجعية السابقة»[33]، الذي يكون فيه الرحّالة أسير الصور النمطية والانطباعات القبلية لغيره، ما يجعله ينظر إلى بلاد العرب وفق ما قرأه أو تخيله، انطلاقاً من نصوص وحكايات مثل ألف ليلة وليلة وغيرها.

التجول في المدينة:

يتوغل الرحّالة مع مرافقيه في المدينة حال وصولهم إليها، يقول لوكر: «كان حقّاً مشهداً خيالياً، فالأوروبيون عادةً لا يذهبون إلى مسقط، وإذا كانوا مجبرين في حالات نادرة فإنهم يذهبون إلى الشاطئ مفضّلين ـ بسبب السلوك الطبيعي المتأصل وعادات السكان ـ البقاء على مسافة بعيدة حذراً منهم»[34].

31 ـ قضى الرحّالة كارستن نيبور في رحلته من بومباي إلى مسقط 26 يوماً، يقول: «تركت بومباي أخيراً في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1764 على متن سفينة حربية صغيرة تابعة لشركة بلاد الهند، كان عليها السفر من مسقط ومن الخليج الفارسي... وصلنا إلى مرفأ مسقط في 3 كانون الثاني/ يناير». رحلة إلى شبه الجزيرة العربية: 2/78 ـ 79.

32 ـ مع الهلال والنجم: 39.

33 ـ الاستشراق: 190.

34 ـ مع الهلال والنجم: 39. يقول نيبور: «إن أحدا من الأوروبيين لم يترك مسقط ليتجول داخل البلاد، إلا أن ولاية عُمان تستحق أن يتوغل فيها الجغرافيون والفيزيائيون، كما أن السفر فيها أكثر أمناً حتى من اليمن». رحلة إلى شبه الجزيرة العربية: 2/83 ـ 84.

وهذا التوغل في نظر الرحّالة مغامرة في بلاد لا يعرفها، ومدعاة للاستغراب من السكان إزاء هؤلاء الأجانب المرئيين لأول مرة؛ لكن مسقط ليست بمنأى عن زيارة الغربيين (الفرنجة كما يسمون في الشرق بتعبير لوكر[35] نفسه)، واستقبال مينائها لسفنهم ذات التقنيات الحديثة، فهو أمر معهود فيها.

يصف الرحّالة ـ في تجواله رفقة السنيور الإيطالي وآخرين وسط زحام مسقط ـ أبنيتها البارزة التي «كانت عبارة عن بيوت حجرية كبيرة وعالية مبنية حسب الطراز العربي، لها أسطح مستوية والقليل فقط من النوافذ، أكبرها منزل الإمام الذي كان آنذاك غائباً في حملة ضد العرب المعادين في منطقة الحسا (الأحساء)»[36]. ذكر من هذه الأبنية مسكن الإمام، ثم مسكناً مجاوراً له هو مسكن القنصل البريطاني، يقول: «لاحظنا مبنًى مؤلفاً من طابقين فيه حديقة جميلة جدّاً، يسكنه القنصل الإنجليزي والمندوب السامي، وهم السكان الوحيدون الأوروبيون في مسقط»[37].

يصف الرحّالة ـ في تجواله رفقة السنيور الإيطالي وآخرين وسط زحام مسقط ـ أبنيتها البارزة التي «كانت عبارة عن بيوت حجرية كبيرة وعالية مبنية حسب الطراز العربي، لها أسطح مستوية والقليل فقط من النوافذ.

ويصف بعد ذلك مستودع الأسلحة الذي يقوم جنديان على حراسته، حيث «كان هناك عدد كبير من الأسلحة الحديدية والنحاسية الإنجليزية والبرتغالية والتركية والعربية وحتى هندية الصنع»[38]، ويرى أنها أسلحة قديمة وأثرية.

هكذا يصف الرحّالة بعض الأبنية الحيوية في مسقط، ويقدّم معلومات مهمة عن موقعها وشكلها، فضلاً عن استكشاف مستودع الأسلحة، وتقديم معطيات عن مكوناته ونوعها وحالتها..

35 ـ مع الهلال والنجم: 40.
36 ـ مع الهلال والنجم: 39.
37 ـ مع الهلال والنجم: 38.
38 ـ مع الهلال والنجم: 43.

في بازار[39] مسقط:

يلجّ الرحّالة سوق مسـقط المزدحم واصفا مشاهداته فيه، تجاراً وزبائن ومعروضات، وهو ـ في نظره ـ مكان اقتصادي بامتياز، و«بطبيعة الحال المكان الأكثر نشاطاً وازدحاماً بالسكان في كافة المدن الشرقية، ومن ثمَّ إنه المكان الأكثر متعة بالنسبة للغرباء»[40].

ويطلق الرحّالة أحكاماً شخصية عن المكان بمرتاديه، التي لا تنفك تأخذ من الإرث النمطي الغربي إزاء كل ما هو عربي، حيث يبدو متوزعاً بين شعورَي الاستغراب والمتعة في الآن نفسه، يقول: «وعُدْنا باتجاه (البازار) أي السوق، أو ـ إذا صح القول ـ جزء المدينة الذي توجد فيه أكشـاك التجار والبائعين وجميع ضروريات الحياة، وكذلك ورشـات عمل كافة الحرفييـن، ابتداءً من المجوهرات، نزولاً إلى ورشة شحذ المقصّات، باختصار: هناك حيث تمارس جميع الأعمال والمهن في البلد»[41].

شخصيات من البازار:

يقدّم الرحّالة في مشـاهداته المباشـرة وصفاً لشـخصيات البازار من العُمانيين بمختلف فئاتهم والطارئين مثل الهنود والأفغان واليهود..، ما يبرز أهمية السـوق ـ هذا المكان الاقتصـادي ـ في تكريس العلاقات بين سـكان منطقتَي المحيط الهندي والخليج، من خلال تجـار المنطقتَين ومعروضاتهم التـي يأتون بهـا من بلادهـم ومن بلـدان أخرى قريبـة وبعيـدة. ومن تلك الشخصيات رجل أفغاني أو فارسي يقول عنه الرحّالة: «هناك كان يجلس رجل فارسي أو أفغاني متجهماً مغروراً، وكان محاطاً ببضائع من شمال غربي آسيا، وقد تمركز جسده الضخم على نحو مريح وسط سجادة ثمينة جدّاً مصنوعة في

39 ـ كلمة تعني السوق، أصلها فارسي (بازار)، ونجدها أيضاً في التركية (PAZAR)مع الهلال والنجم: 44، هامش: 1.

40 ـ مع الهلال والنجم: 44.

41 ـ مع الهلال والنجم: 44.

أصفهان أو مازندران»[42]، ويوغل في وصف شكله وملابسه وجلسته[43]، ولا ينسى مقارنة الموصوف بنموذج العيش الأمريكي في قولــه: «كان يجلس بالطريقة الشرقية التي تبدو للأمريكيين غير مريحة إلى حدٍّ ما بالنسبة لخيّاط؛ حيث كانت ســاقاه متصالبتين تحته، ويدخن بهدوء (الشُّــبُق)»[44]، ليظهر بأن هذا الوصف ومن ثمة الرحلة بكاملها متوجهة أصلاً إلى القارئ الأمريكي بالأخص، وإلى الغربي عامة.

يصف الرحّالة الحركة التجارية النشــيطة في الســوق وأنــواع البضائع المحلية والمستوردة المعروضة فيه؛ مثل: الحلوى العُمانية ولحم الماعز والإبل والســمك والخضــر والفواكــه، كما يســتحضر الرحّالة الفارق الديني بينه وبين الآخر في سوق مســقط، حيث يلاحظ انعــدام لحــم الخنزير، مفسراً ذلك بقوله: «بالتأكيد كان لحم الخنزير خارج نطاق الجدل تمامــاً؛ فكون القرآن قد ذكر أن لحم الخنزير نجس، فهو يتســبب للمســلمين بالاشمئزاز الشديد»[45].

يصف الرحّالة الحركة التجارية النشيطة في السوق وأنواع البضائع المحلية والمستوردة المعروضة فيه؛ مثل: الحلوى العُمانية ولحم الماعز والإبل والسمك والخضر والفواكه.

كما يصف وضع الســوق من حيــث الازدحام والحرارة المرتفعة والضجيج المتمثل في أصوات الباعة: ويظل هذا النشــاط مســتمراً من شروق الشــمس إلى غروبها. وفي الأخير يخرج الرحّالة بهــذا الحكم: «إجمالاً؛ إنّ زيارة سوق عربي هي الأكثر متعة بالنســبة لطالب علم نفس؛ إذ إنّ المشهد يجب أن يشاهد شخصياً ليتم فهمه بشكلٍ جيدٍ؛ لكونه مشهداً يتحدى الوصف. ولكن مع ذلك حاول أن تصور لنفســك صفوفاً طويلة من الأكشــاك الخشبية

42 ـ مع الهلال والنجم: 46.

43 ـ عبّر الرحّالة عن صعوبة مســايرة مضيفه ومرافقيه في مجلس ضيافة شيخ الكويت، بسبب عدم تعودهم على الجلسة العربية. مع الهلال والنجم: 74.

44 ـ مع الهلال والنجم: 47.

45 ـ مع الهلال والنجم: 50.

المصفوفة على جانبَي الممر الذي يتراوح ما بين ثلاث أقدام إلى ست أقدام، ويطلق عليه اسم شارع بالمجاملة فقط»[46].

حكم فيه إغراء للقارئ الأمريكي خاصة، واستدعاء لسحر الشرق في مخياله، وحفّزه على خوض التجربة. هذا الإغراء هو نفسه عاشه الرحّالة حين قرأ رحلات سابقيه إلى الشرق، وهو شيء متوارث عند الرحّالة الغربيين عموماً، يمثل سلطة للسابق على اللاحق.

عُمران مسقط:

تتوزع مباني مسقط ـ حسب الرحّالة ـ بين المنازل والمساجد والأسوار. أما المنازل فتتوزع بين منازل الأثرياء وهي «مبنية بالطوب المجفف بالشمس، ولا تتجاوز الطابقين في الارتفاع، ولها أسطح مستوية ونوافذ صغيرة محمية بالحديد»[47]، ومنازل الفقراء وهي عبارة عن «أكواخ صغيرة مصنوعة من قطع اللَّبِن المجفف بالشمس، ذات أسطح مستوية أيضاً»[48].

وبخصوص المساجد فذكر أنها «عبارة عن أبنية حجرية كبيرة ومربّعة الشكل؛ لكنها بسيطة جدّاً وذات مظهر متقلقل، ولولا القباب التي تعلو أسطح الجوامع والمآذن المتاخمة لها؛ لكان من الصعب جدّاً بالنسبة لي أن أميّزها عن باقي الأبنية الحجرية»[49]. وطبيعي أن الرحّالة هنا يستدعي ـ في نظرته إلى المساجد ـ المرجعية في العمران المسيحي الكَنَسي أو الكاتدرائي، بهندستها وفنيتها الداخلية (لوحات وتماثيل..)، وهو ما ينعدم في النموذج الديني الإسلامي الذي تقوم فيه عمارة المساجد على التوحيد[50].

46 ـ مع الهلال والنجم: 48.

47 ـ مع الهلال والنجم: 51 ـ 52.

48 ـ مع الهلال والنجم: 52.

49 ـ مع الهلال والنجم: 52.

50 ـ ينظر كتاب: كيف نفكر في الفن الإسلامي، أوليغ كَرابار، ص12، ترجمة: عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1996. وكتاب: مساجد عمان وأضرحتها التاريخية، دراسة وصفية توثيقية لمساجد عُمان القديمة وأضرحتها، پاولو م. كوستا، ترجمة عبد الله الحراصي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، 2006.

وينتقل لوصف المعمار المحيط بالمدينة، وهو سور دفاعي «يحيط بمدينة مسقط... من ثلاث جهات... هو الأكثر خراباً وتقلقلاً من ذي قبل... صنعت البوابات من الخشب المدعم بالحزم الحديدية القوية؛ إلا أنها لا توفر حماية كافية للسكان في حال تعرضهم لأي اعتداء كان»[51].

ثم يصف سكان مسقط ـ الذين يقدّرون بـ «ستين إلى سبعين ألفاً من السكان ـ بأن تسعة أعشارهم يعتنقون الدين الاسلامي، والبقية الباقية مؤلفة من يهود وهندوس»[52]، كما يصف الغطاء النباتي وحالة المياه.

غادر لوكر مدينة مسقط التي وصفها بالمدينة الممتعة، وفي طريقه إلى الباخرة يسوق خبر موت الإمام وتولي أحد إخوته. كما يذكر في الأخير ميناء مدينة الغُبرة الصغير الذي يقع شمال مسقط ببضعة أميال.

خلاصة القول: يقدّم الرحّالة لوكر وصفاً عاماً لمدينة مسقط يمزج بين التاريخ والجغرافيا والإثنوغرافيا والمعمار... مبتغياً تقديم معطيات مهمة لقارئه الأمريكي الخاص والعام، حيث يقول: «لقد تقصّينا ما يمكن تقصيه في هذه البلدة المثيرة للانتباه»[53].

يقدّم الرحّالة لوكر وصفاً عاماً لمدينة مسقط يمزج بين التاريخ والجغرافيا والإثنوغرافيا والمعمار... مبتغياً تقديم معطيات مهمة لقارئه الأمريكي الخاص والعام، حيث يقول: «لقد تقصّينا ما يمكن تقصيه في هذه البلدة المثيرة للانتباه».

الكويت: الإفرنج وسفينة النار

من مسقط اتجه الرحّالة في سفينة بينانغ Penang إلى مسندم في شمالها، فمضيق هرمز الذي «يشكّل نقطة الخروج من الخليج العربي إلى المحيط الهندي»[54]، ثم تلج السفينة سواحل إيران مارّة على بندر عباس، ثم

51 ـ مع الهلال والنجم: 52.

52 ـ مع الهلال والنجم: 52.

53 ـ روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية: 37/3.

54 ـ مع الهلال والنجم: 55.

جزر هرمز وقشم، ومدن لنجة وبوشهر، وجزيرة خارك في إيران، ثم جزيرة فيلكا والكويت أخيراً.

ليس لوكر الرحّالة الأول النازل بالكويت؛ بل زارها رحّالون غربيون من البريطانيين خاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر «خلال الفترة ما بين 1815 و1866 [زارها] ثلاثة من الرحّالة، تصادف مرور أولهم بالمنطقة في بداية هذه الفترة عام 1816، ونعني بذلك الرحّالة بكنجهام [Buckingham]. ثم جاء الرحّالة ستوكويلر [Stocqueler] في منتصف هذه المرحلة تقريباً عام 1831. وكان ثالثهم الكابتن پلّي [Pelly] المقيم الانجليزي في الخليج»[55]، ويعد لويس پيلّي Lewis Pelly أقرب الرحالين زمناً إلى لوكر؛ حيث يقول: «وعلى ذلك أبحرتُ في شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1865 عبر الخليج العربي إلى الكويت»[56].

خصّص لوكر حيّزاً مهما للكويت في رحلته؛ إذ الباخرة بينانغ تلج ساحلها لأول مرة؛ بل هي أول سفينة بريد تفعل ذلك في تاريخ الكويت، يقول: «وصلنا إلى ميناء الكويت بعد ساعة من الزمن، ورسونا على بعد ميل ونصف تقريباً من الشاطئ؛ لأن الكابتن كان يجهل حال هذا الميناء؛ فهذه هي المرة الأولى التي ترسو فيها سفينة بريدية في هذا المكان»[57]، والسبب وجود أحد وجهاء الكويت السفينة مصحوباً ببضائعه من بومباي، وهو يوسف بن عبد الله الإبراهيم (1906م)، الذي «كان أحد الأقارب المباشرين لشيخ الكويت؛ ومن ثمَّ فهو رجل ذو نفوذ كبير في هذا المكان»[58].

شيخ الكويت

كان حاكم الكويت زمن الرحلة هو الشيخ صباح بن جابر الصباح (1276 ـ 1283هـ/ 1859 ـ 1866م)، وليس ابنه عبد الله كما سلف ذكره. ويصفه الرحّالة بقوله: «والشيخ رجل طويل القامة، مفتول العضلات، ذو ملامح

55 ـ تاريخ الكويت الحديث: 198.

56 ـ رحلة الى الرياض: 28.

57 ـ مع الهلال والنجم: 68.

58 ـ مع الهلال والنجم: 68.

جذابة، ولحية فضية مرسلة، يبلغ من العمر أكثر من ثمانين عاماً، وتبدو على وجهه ملامح الذكاء، وهو مهذب جدّاً في كلامه وعاداته الشرقية»[59]. كما يصف حاشيته ومرافقيه. ويبدو أن الشيخ كان في آخر أيامه، حيث توفي في السنة نفسها (1866م) التي زاره فيها لوكر.

زيارة سفينة النار

كانت الباخرة بينانغ أول باخرة تصل إلى ساحل الكويت، ما أثار دهشة السكان الذين سموها «سفينة النار»، وهي ـ في نظرهم ـ «الباخرة التي تشق عباب البحر دون أية أشرعة مثبتة، حتى عندما لا يكون هناك أي نسمة هواء ودون استخدام المجاديف».

كانت الباخرة بينانغ أول باخرة تصل إلى ساحل الكويت، ما أثار دهشة السكان الذين سموها «سفينة النار»[60]، وهي ـ في نظرهم ـ «الباخرة التي تشق عباب البحر دون أية أشرعة مثبتة، حتى عندما لا يكون هناك أي نسمة هواء ودون استخدام المجاديف»[61]، ويصف لوكر زيارة الشيخ لها بطلب منه؛ إذ هي أول زيارة له لباخرة من دون أشرعة، «إنها رؤية لم يشهدها من قبل، فعلى الرّغم من أنه رأى سابقاً عدة سفن في عرض البحر، لم تتسنَّ له فرصة الصعود على متن أيّ منها»[62]. هكذا استكشف الشيخ «سفينة النار» من الداخل (غرفة الكابتن، وحجرات المسافرين، والمطبخ، وغرفة المحرك..)، واطلع على النموذج الملاحي الغربي عن كثب لأول مرة، وهو أمر بالغ الأهمية في إدراك الفارق بين الذات والآخر، بين العرب والغرب في وقت كانت فيه شمس العرب والمسلمين إلى إدبار.

رؤية الإفرنج

يرصد لوكر رد فعل السكان وانطباعاتهم إزاء رؤية الفرنجة أو الفرنجيين، «فالعديد منهم ـ وخاصة النساء ـ لم يسبق لهم أن شاهدوا

59 ـ مع الهلال والنجم: 70.
60 ـ تسمى عند الرحالين المغاربة «بابور البحر».
61 ـ مع الهلال والنجم: 68.
62 ـ مع الهلال والنجم: 70 ـ 71.

مخلوقات مثلنا طوال فترة حياتهم»[63]. هذه الرؤية المتحقّقة في «مرحلة الضعف الإسلامي؛ فإن الآخر أصبح محط الدهشة والانبهار أحياناً، ومحط تسليم واعتراف ـ أحياناً أخرى ـ بتجليات الدهشة في الصناعة والعمران وإخضاع الطبيعة»[64]. الدهشة سارية على الجميع حاكماً ومحكومين؛ دهشة الشيخ إزاء سفينة النار، ودهشة السكان إزاء أصحاب السفينة أنفسهم، وهي مفارقة تبرز استعظام الآخر وتفوقه على الذات.

في ضيافة الشيخ

بعد تجوال الشيخ في سفينة النار دعا ركّاب السفينة الأوروبيين إلى العشاء في منزله، ما حدا بالرحّالة إلى تقديم وصف دقيق لما في منزل حاكم الكويت من حيث المعمار والأثاث والطعام والضيوف..، يقول: «وصلنا بأمان إلى مكان إقامته؛ وهو بناء مبني بالطوب مربع وقوي، فيه باحة فسيحة في الداخل، وفي وسطها كتلة من الأشجار غير المنتظمة والأزهار كبديل عن الحديقة. قام الشيخ باقتيادنا إلى قاعة الاستقبال الخاصة به، إنها غرفة واسعة ومرتفعة تسمح بدخول الهواء النقي وضوء الشمس عبر شبّاكين وباب يؤدي إلى الباحة»[65]. ويقدّم الرّحالة ملحوظات في السلوك الاجتماعي، مثل: عدم اهتمام العرب بخلع قبعاتهم على عكس الأوربيين، ويذكر بالمقابل اهتمامهم بخلع أحذيتهم قبل الدخول وانتعال «الشباشب»، وهو اختلاف في العادات يرصده الرحّالة.

لعلَّ الرحّالة وجد في مجلس الضيافة ما يشفي غليله للشرق المستبطن في ذهنه (بخور، كؤوس ذهبية، عبيد، قهوة عربية، نراجيل وغلايين، أشربة[66] متنوعة..).

63 ـ مع الهلال والنجم: 72.

64 ـ الرحلة نحو الآخر أو الرحلة الخارجية، عبد الرحيم مودن، ص158، ضمن كتابه «الرحلة في الأدب المغربي».

65 ـ مع الهلال والنجم: 72.

66 ـ يقول: «أما النبيذ والمشروبات الروحية فقد كانت محرمة بشدة على أولئك الذين يؤمنون بالقرآن». مع الهلال والنجم: 74.

على العشاء يطنب الرحّالة في وصف مشاهداته، فذكر المائدة (حصيرة قش هندية)، والوسائد المحيطة بها، وأواني الطعام، وأنوع الأطعمة الموضوعة عليها مثل: اللحوم والسمك والخضر والفواكه.. ما جعل الرحّالة يبدي إعجابه الكبير بالطعام في قوله: «كان الطعام بكامله جديراً فعلاً بأن يكون سيّد الأطعمة»[67].

زار لوكر مدينة الكويت مع مرافقيه الأوروبيين في حراسة جنود موكلين بذلك من الشيخ، وقدّم وصفاً لها من حيث المظهر والمناخ والنبات والسكان والمراكب.. يقول: «وجدنا أن المدينة تشبه مسقط إلى حد كبير؛ فقد تبيّن بشكلٍ ملحوظٍ أن الكويت كمدينة عربية كانت نظيفة جدّاً».

وصف المدينة

زار لوكر مدينة الكويت مع مرافقيه الأوروبيين في حراسة جنود موكلين بذلك من الشيخ، وقدّم وصفاً لها من حيث المظهر والمناخ والنبات والسكان والمراكب.. يقول: «وجدنا أن المدينة تشبه مسقط إلى حد كبير؛ فقد تبيّن بشكلٍ ملحوظٍ أن الكويت كمدينة عربية كانت نظيفة جدّاً»[68].

ويتوقف عند أنشطة السكان ـ رجالا ونساءً ـ الذين «يعملون كتجار أو بحارة يتبادلون مع البصرة والشواطئ الفارسية... والكثير من السكان يربُّون قطعان الأغنام، والأحصنة، والحمير، والماعز، والجمال... ونساء الكويت ذائعات الصيت بصناعتهن ومهارتهن في جميع أنواع الأعمال اليدوية؛ كالحياكة والغزْل والنسيج وغيرها من الصناعات»[69].

النوم فوق السطح

خاض الرحّالة تجربة فريدة تتمثل في حلوله على سطح منزل الشيخ والنوم عليه، يقول: «عند عودته قام بدعوتنا لمرافقته إلى سطح منزله

67 ـ مع الهلال والنجم: 78.

68 ـ مع الهلال والنجم: 74.

69 ـ مع الهلال والنجم: 76.

المستوي، وهو في جميع أنحاء جزيرة العرب المكان المعتاد للتنزه؛ لكونه المكان الأفضل للاستمتاع بنسيم المساء، ويُعدَّ السطح أيضاً مهجعاً لسكان المنازل المجبرين على النوم فوق أسطح منازلهم بسبب المناخ شديد الحرارة. ومن قمة السطح تمتعنا برؤية شاملة للخليج الساكن الذي يشمل 3024 جزيرة صغيرة ومقفرة»[70].

يبدو السطح امتداداً للمنزل، بل هو منزل ثانٍ في الليل؛ إذ «بدا أن جميع سكان الكويت دون استثناء اجتمعوا فوق سطوحهم؛ ليستمتعوا بالنسيم المنعش الذي أتى برقّة، محملاً برائحة عليلة عبر الخليج. كان المشهد أمامنا يمنح متعة عظيمة»[71].

ويعبّر الرحّالة عن ارتباكه حين خاض هذه التجربة؛ فهو الذي ألف النوم منفرداً في غرفة موجودة في منزل مسقوف، وها هو ذا ينام مع جماعة فوق سطح منزل غير مسقوف، ما جعله يشعر بالارتباك في البداية، قبل أن يتقبل الأمر، يقول: «وشخص أمريكي ينام للمرة الأولى في حياته على سطح منزل عربي، ويشعر بانه بحالة مربكة إلى أبعد الحدود»[72].

ويعتمد الرحّالة أسلوباً بلاغياً منبهاً القارئ الغربي إلى روعة المشهد الليلي المتفرّد، وتبيان انطباعاته التي لا تبعد الوصف الرومانسي للشرق، يقول: «فهنا يوجد مسلم صالح لا يزال منهمكاً في صلاته الخاشعة، وهناك زوجان فتيّان يتهامسان أحاديث الحب الرقيقة، وفي مكان أبعد أم ترعى صغارها، وعذراوات عربيات يغنّين الأغاني المحلية الحزينة والشجية، وهناك بعيداً في الصحراء العديد من المسافرين المنفردين.. أجسام داكنة تتناقض بشكل غريب مع الأفق الذهبي في الخلف»[73].

هذه بعض انطباعات لوكر عن الكويت، وقد غادر رفقه الأوروبيين الذين

---

70 ـ مع الهلال والنجم: 79.

71 ـ مع الهلال والنجم: 79.

72 ـ مع الهلال والنجم: 79.

73 ـ مع الهلال والنجم: 79.

أثنوا على حسن ضيافة شيخ الكويت الذي بقي «على الشاطئ محاطاً بشعبه، إلى أن ابتعدنا عن أنظاره»[74] في اتجاه العراق وما تلاه من البلدان الآسيوية.

العلاقات بين عمان والهند والخليج:

يجد المُطالع لما سلف لمحات عن عمق العلاقات بين عُمان ودول المحيط الهندي والخليج، على عدّة أصعدة، منها:

ـ **الصعيد البشري:** انتقال المجموعات البشرية من عُمان وإليها واضح في الرحلة، حيث ضمّت سفينة بينانغ كثيراً من الأجناس، و«القسم الأكبر كان من سكان ساحل جزيرة العرب، الذين كانت لديهم علاقات عمل في الهند، وعدد قليل جدّاً من الهنود من ضمن هذا التجمع»[75]. ما يعني استقرار هنود وغيرهم في عمان واشتغالهم بالتجارة في الأسواق.

يلحظ لوكر وجود تجار من الهنود المسلمين في سوق مسقط «يدعون (Borhas) (بوراس)، يرتدون زياً أبيض كالثلج من الرأس حتى أخمص القدم، وعمامات صغيرة، وعباءات طويلة لقد أتوا من هندستان محملين بالمنتجات الثمينة الموجودة في تلك الأرض الخصبة والرائعة.

ـ **الصعيد الاقتصادي:** وهو الطاغي في تلك العلاقات، حيث نشطت حركة التجارة في المنطقة، عبر استيراد منتوجات الهند وتصدير أخرى محلّية إليها. وهذا النشاط قديم ذكره رحّالة قبل لوكر في قوله: «وصلت إلى المرفأ [مرفأ مسقط] عدة سفن هندية، وكانت تعبّر عن فرحها بالوصول على طريقة بلادها فتقرع الطبول، وتنفخ في الأبواق»[76].

ويلحظ لوكر وجود تجار من الهنود المسلمين في سوق مسقط «يدعون (Borhas) (بوراس)، يرتدون زياً أبيض كالثلج من الرأس حتى أخمص القدم، وعمامات صغيرة، وعباءات طويلة.. لقد أتوا من هندستان محملين بالمنتجات

74 ـ مع الهلال والنجم: 81.

75 ـ مع الهلال والنجم: 34.

76 ـ رحلة إلى شبه الجزيرة العربية: 2/79.

الثمينة الموجودة في تلك الأرض الخصبة والرائعة»[77]، فضلًا عن وجود بضائع متنوعة من الهند والبنجاب؛ مثل «علب المجوهرات والصناديق وقطاعات الورق... إلخ، والتي كانت جميعها مصنوعة من خشب الصندل ذي الرائحة الفريدة ومنحوتة بدقة وجمال، أو مطعمة بخشب الأبنوس أو العاج والفضة المصنوعة في بومباي»[78].

أما عُمان فقد ذكر لوكر تصديرها «كميات هائلة من السمك المدخّن والمجفف بالشمس من هنا إلى بلاد فارس والهند وجزيرة الملايو وجزر زنجبار وموريشيوس».

- **الصعيد الثقافي:** تستدعي العلاقات الاقتصادية المعطى الثقافي الذي يميّز كل شعب أو فئة، ومن ذلك اللغة التي تيسّر التواصل بين التجار وغيرهم، فقد كان يوسف الإبراهيم - القادم من بومباي - بارعاً في الهندية، ما جعله ترجماناً[79] لشيخ الكويت في حديثه مع قبطان الباخرة الذي يتقن الهندية أيضاً. كما نجد طريقة التحية[80] عند شعوب المنطقة التي وقف عندها لوكر حين زيارة شيخ الكويت للباخرة، حيث حيّاه على الطريقة الشرقية الهنود وجزيرة العرب؛ فيما حيّاه الأتراك والفرس بطريقة أخرى.

- **الصعيد الاجتماعي:** يتجلّى في اشتراك المجتمعات الخليجية في عادات معينة في الأنشطة البشرية، فضلاً عن وحدة الدين واللغة والتاريخ.

خلاصات وتوصيات:

يخلص الباحث من خلال ما مرّ إلى الآتي:

- إن نصوص الرِّحْلات الغربية إلى دول المنطقة تحوي على معطيات مهمة عن الإنسان والمجال، مع ما فيها من سوء فهم وتحامل أحياناً، وهذا تحصيل حاصل.

---

77 - مع الهلال والنجم: 47.
78 - مع الهلال والنجم: 47.
79 - مع الهلال والنجم: 69.
80 - مع الهلال والنجم: 71.

- الراجح أن الرحلة تمت عام 1866م، وليس عام 1868م كما ذهب إلى ذلك باحثون ومترجمون.

- جاءت رحلة لوكر في ظروف سياسية وتاريخية خاصة، تمثلت في بدء التغلغل الاستعماري في آسيا (الهند)، وظهور السطوة الغربية في المنطقة، ما يجعل منظور الرحّالة محكوماً أحياناً بهذا التوجه.

- إن الرحلة تضمّنت معطيات ومعلومات مهمة جدّاً للباحثين في تخصّصات متنوعة مثل: التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والإثنوغرافيا والعمارة..

- إن الرحلة من بومباي إلى الكويت أظهرت بلدان المنطقة من الداخل، وقدمت دلائل على عمق العلاقات بين عمُان ومحيطها، تاريخياً وبشرياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

جاءت رحلة لوكر في ظروف سياسية وتاريخية خاصة، تمثلت في بدء التغلغل الاستعماري في آسيا (الهند)، وظهور السطوة الغربية في المنطقة، ما يجعل منظور الرحّالة محكوماً أحياناً بهذا التوجه.

أما التوصيات فنجملها في الآتي:

- العمل على ترجمة نصوص الرِّحْلات الغربية إلى بلدان المنطقة، ودراستها ونقدها؛ إذ إن عدداً مما اطلعنا عليه يفتقر إلى الجانب العلمي في المراجعة والدراسة والنقد، وأرجو أن يتحقق هذا المشروع برعاية مؤسسة أكاديمية وإنجاز مترجمين وباحثين متخصصين.

- إطلاق سلسلة كتب تهتم بترجمة نصوص الرِّحلات إلى سلطنة عُمان ومنها؛ لما تحتويه من معطيات ومعلومات مهمة.

- عقد شراكات مع المؤسسات والجامعات الغربية؛ لإطلاق تخصَّصات وبرامج تعليمية، يكون هدفها إعادة دراسة الشرق كما تحقّق تاريخياً، لا كما نظر إليه الرحّالون والمستشرقون.

ملحق البحث:

غلاف الرحلة الأصلية

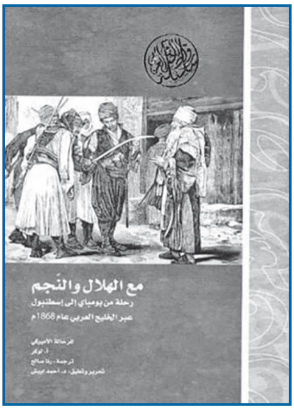

غلاف الرحلة المترجمة

صورة الرحّالة لوكر

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو حاكمة، أحمد مصطفى، تاريخ الكويت الحديث، 1163 ـ 1385هـ/1750 ـ 1965م، الكويت، ذات السلاسل للطباعة والنشر، 1984م.
- ابن الزبير، محمد، وآخرون، دليل أعلام عُمان، ضمن «موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب»، منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط، المطابع العالمية، 1991م.
- بيلّي، لويس، رحلة إلى الرياض في عام 1865م، ترجمة وتعليق: أحمد إيبش، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2010م.
- الرُّشَيد، عبد العزيز، تاريخ الكويت، وضع حواشيه وأشرف على تنسيقه: يعقوب عبد العزيز الرشيد، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1978م.
- سعيد، إدوارد، الاستشراق: المعرفة ـ السلطة ـ الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 2001م.
- عبد العزيز، عبد الغني إبراهيم، روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، الجزء الثالث 1900 ـ 1952، بيروت، دار الساقي، 2013م. 3 ج.
- القناعي، يوسف بن عيسى، صفحات من تاريخ الكويت، القاهرة، دار سعد، 1946م.
- لوكر، أ، مع الهلال والنجم، رحلة من بومباي إلى إسطنبول عبر الخليج العربي عام 1868م، ترجمة: رنا صالح، تحرير وتعليق: أحمد إيبش، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2011م.
- مودن، عبد الرحيم، الرحلة في الأدب المغربي: النصّ ـ النوع ـ السياق، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2006م.
- نيبور، كارستن، رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ترجمة: عبير المنذر، ج 2، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 2007م. 2 ج.
- Kenneth R. Wade, Journey to Moriah: The Untold Story of How Abraham Became the Friend of God, USA, Pacific Press Publishing, 2004.